• دریافت ۹۱/۰۳/۸
• تأیید ۹۱/۱۲/۲

التناص القرآنی فی شعر حسان بن ثابت الأنصاری

الدکتور حجت رسولی*
محمد ظهیری**
مصطفی زرگانی***

الملخّص

ظهر التناص کظاهرة نقدیة علی ید جولیا کریستیفا الناقدة البلغاریة عام ۱۹۶۶م و بانتشار هذا المنهج النقدی قد انتهت فکرة استقلال النصوص لأنّ هذا المنهج یعتمد علی أنّ کل نص جدید متأثر بالنصوص القدیمة . و حینما ورد فی الأدب العربی قد أحدث دویاً عظیماً و لفت أنظار کثیر من نقاد العرب و أصبح شغلهم الشاغل فاهتموا به و عالجوه . کما نعلم أنَّ الکتب المقدسة کان لها تأثیر بالغ فی المحاولات الأدبیة لهذا نری کثیراً من الأدباء و الشعراء و الکتّاب تأثروا بهذه الکتب وخاصة القرآن الکریم فی العالم الإسلامی. فبدأ هذا التاثیر منذ بزوغ فجر الإسلام حتی یومنا هذا و ذلک لتزیین آثارهم الأدبیة بهذه الخصال الحمیدة حتی یخلدوها. اما حسان بن ثابت الانصاری فعندما دخل الإسلام ، أصبح شاعر النبی (ص)، لهذا إستقی أدبه من القرآن الکریم وأحادیث الرسول (ص) أضاف إلی مفرداته و معانیه بعض المفردات الجدیدة حیث نری فی طیات دیوانه یزین کلامه بهذه المضامین القرآنیه و تتوزع ظواهر التناص مع القرآن الکریم عند شاعرنا علی عدة المحاور التی تنم علی إدراک حسان و استشرافه لمورثه الدینی و نحن اخترنا من هذه المحاور الألفاظ والمضامین التی قد اقتبسها من القرآن لنطبقها مع ظاهرة التناص .

الکلمات الرئیسة:
القرآن ، الأدب العربی ، الشعر ، التناص ، حسان بن ثابت الأنصاری

*الأستاذ المشارک فی اللغة العربیة و آدابها بجامعة الشهید بهشتی h_rasouli@sbu.ac.ir
** الماجستیر فی اللغة العربیة و آدابها
*** *الماجستیر فی اللغة العربیة و آدابها* m.zargani66@gmail.com

المقدمة

یعُدّ التناص (interextuality) من المصطلحات الوافدة من الغرب الذی تحدثت عنه البلغارية جوليا كريستيفا فی كتابها « نص الرواية» عام ۱۹۷۰م و المقصود من هذا المصطلح تولد نص واحد من نصوص متعددة ذا معنی جديد. و اما هذه الظاهرة النقدية قد وردت فی الأدب العربی فی القرن العشرين و أصبحت منهجاً من مناهج النقد العربی .فدون أدنی شک أنّ النقاد العرب كانوا يعرفون هذه الظاهرة منذ عصور قديمة، لكن بأسماء تختلف عمّا تسمی اليوم بالتناص ؛ مثل السرقات و المعارضات الشعرية و المنافسات و الاقتباس و التضمين و الإشارة و التلميح والتوليد. اما فی بحثنا هذا فقد تناولنا التناص و للتناص أنواع عدة منها التاريخی و الإجتماعی و الأدبی و القرآنی ...وإلخ ومن أبرزها التناص القرآنی الذی استخدمه حسان فی شعره الإسلامی و قد كشفنا عنه فی عدة قصائد محاولين إظهار اثر القرآن الكريم فی هذه القصائد عبر التناص الخارجی . فحسان بن ثابت الأنصاری كالشعراء الملتزمين استقی أدبه من ينبوع البلاغة والفصاحة «كلام الله عزّوجل» حتی استطاع أن يخلق شعراً ذا قيمة أخلاقية و دينية. فدراسة شعره و إظهار ما استخدم من مضامين و ألفاظ قرآنية بصفته شاعر الرسول (صلی الله عليه)من ناحية منهج التناص ذات أهمية كبيرة و لعلّ هذا المقال يأتی بالفائدة المرجوة.

أسئلة البحث

۱ – مدی تأثر حسان بن ثابت بالقرآن الكريم ؟
۲– كيفية هذا التأثير لفظاً و مضموناً ؟

سابقة البحث

يعدّ حسّان بن ثابت فی مقدمة الشخصيات التی استحوذت علی تفكير العديد من الباحثين وخاصة من يقومون بدراسة النقد الأدبی. لأنَّ لشعره ميزات

خاصة تناقش من قبل الباحثين و الناقدين مثلاً حسان شاعر مخضرم و شعره إسلامی جاهلی و هناک بون شاسع بين شعره الجاهلی و الإسلامی من حيث المضامين و التراكيب و حتی المفردات . الميزة التی أعطت حسان و شعره أهمية خاصة و لفتت أنظار الباحثين إليه هی أنه كان شاعر النبی لهذا يدرس شعره. و معظم الكتب التاريخية تناولت هذا البحث لكن بالاختصار مثل « تاريخ أدباء العرب» لبطرس البستانی كما يقول « فی شعر حسان ألفاظ جديدة لم نألفها من قبل، كقوله: جبرئيل أمين الله ، روح القدس ، أرسلت عبداً ، فهذه الألفاظ وغيرها أحدث القرآن معانيه الجديدة فی الإسلام.(البستانی،۱۹۷۹:ج ۱، ۲۷۸) و أيضاً عمر فروخ فی كتابه « تاريخ الأدب العربی» و الذی يقول فيه: «اكتسب شعر حسان فی الإسلام كثيراً من العذوبة و الإخلاص و كثرت فيه التعابير الإسلامية و الاقتباس من القران الكريم(فروخ ، ۱۹۸۱:ج ۱، ۳۲۶) و شوقی ضيف فی كتابه« تاريخ الأدب العربی فی العصر الاسلامی» يقول:« وردت معان إسلامية فی شعر حسان عندما أسلم و قد ميزت بين شعره الإسلامی و الجاهلی مثل جبرئيل أمين الله ، روح القدس، مستعصمين بحبل غير منجذم ، فينا الرسول »(ضيف ، ۲۰۰۴: ۸۲) وأيضاً مقالات عديدة كتبت حول حسان مثلاً « أثر الإسلام فی أسلوبية حسان بن ثابت الأنصاری » لمحمد عبد المجيد أستاذ النقد فی جامعة ملک سعود حيث استطاع الباحث من خلالها تجاوز معطيات المنهج النقدی الألسنی الذی يعنی بالوصف دون الحكم ، ولا يتعدی بذلک شمولية النص الأدبی أو يبحث علاقاته البلاغية بعضها مع بعض، و إنما قام الباحث بالاعتماد علی بيان العلاقات بين العناصر و الوظائف التی تكتنفها الظاهرة ، من خلال عرض أهم الظواهر اللغوية عند الشاعر و المتمثلة فی : التقديم و التأخير ، والحذف ، و الاعتراض والفصل ، والتكرار بأنواعه، وسياقاتها الدلالية المختلفة و أيضاً كتبت مقالة بجامعة طهران علی عنوان : «دراسة فی التطور البنيویّ فی قصيدة جاهليّة و قصيدة إسلاميّة لحسان بن ثابت الأنصاری نظراً إلی المكتبة البنيوية» الذی كتبها دكتر

غلامعباس رضایی، ومع کل هذه محاولات لم تکن دراسة تقوم بدراسة التناص فی شعر حسان و هذه أول محاولة تتناول شعر حسان من هذه الناحیة .

منهج البحث

بداية تطرقنا إلی ظاهرة التناص عند الأوربيين و العرب ثم تکلمنا عن حياة حسان بن ثابت و مکانته فی الشعر و بعده اخترنا أبياتاً من أشعار حسان بن ثابت الأنصاری قد ضمنت فی طيّاتها المفردات والمضامين القرآنية .ثم ذکرنا هذه الأبيات و بيّنّا من خلالها المفردات و المضامين القرآنيه و ماهية التناص استعمل فيها. فقد کان منهجنا فی هذا البحث توصيفياً _ تحليلياً.

التناص

مصطلح نقدی حديث ظهر فی ظلّ الاتجاهات النقدية الجديدة و يعنی أنّ العمل الأدبی يدرک فی علاقته بالأعمال الأخری؛ فالأدب ينمو فی عالم ملیءٍ بکلمات الآخرين. فـ«التناص INTERTEXTUALITY مصطلح نقدی يرادفه "التفاعل النصی" و"المتعاليات النصية "TRANSTEXTUALITY. و قد ولد هذا المصطلح "التناص" علی يد *جوليا کريستيفا* عام۱۹۶۶ التی استنبطته من *باختين* فی دراسته *لدستويفسکی*، حيث وضع باختين تعددية الأصوات "البوليفونية" والحوارية "الديالوج" دون أن يستخدم مصطلح التناص.(عزام،۲۰۰۱: ۲۸) فمصطلح التناص يمثل عندها« تقاطع نصوص و وحدات نصوص ، فی نصّ، أو نصوص أخری» و أصبح النص فی منظورها« لوحة فسيفسائية من الاقتباسات، فکل نص يستقطب ما لا يحصی من النصوص، التی يعيدها عن طريق التحويل، والنفی، و الهدم و إعادة البناء». (واصل،۲۰۱۱: ۱۵) و أيضاً من الباحثين الغربيين الذين تناولوا هذا المصطلح بعد باختين و کريستيفا "فيليب سولرس" الذی يقوم تصوره لمفهوم التناص علی أنّه« کلّ نصّ يقع فی ملتقی مجموعة من النصوص بحيث يکون هو

الجامع بینها و المشکل لها و مکتفها و عمقها علی السواء». (الحمدانی،٢٠٠١: ٦٧ – البقاعی ١٩٨٨: ٦٣) و قد شاب مفهوم هذا الاصطلاح شیءٌ من الضبابیة، ففی مرحلة من مراحل تطور البحث فی مفهوم التناص فُهِمَ هذا المصطلح علی أنّه« مجرّد تقاطع لعدد من النصوص والأسالیب داخل نصّ واحد أو أنّه إرجاع نصّ إلی مصادره الثقافیة المعاصرة». (الحمدانی ،٢٠٠١: ٦٩)؛ ولکن " ریفاتیر " میّز بین مصطلحی تقاطع النصوص و التناص فتقاطع النصوص یستدعی دراسة لتاریخ الموثرات الأدبیة أو البحث عن المنابع و لهذا النوع من البحث هدف تفسیری لأنه یجیب علی سوال محدد و هو: کیف تکوّنت النّصوص الأدبیة؟ غیر أنّ التناص « لایتوجه نحو اکتشاف الأصول التأریخیة لتلک النصوص السابقة، بل یتّجه للحدیث عن أدوارها فی النّصّ». (الحمدانی ، ٢٠٠١: ٧١) فمن الممکن أن نقول إنّ التناص «تشکیل نصّ جدیدٍ من نصوص سابقة أو معاصرة بحیث یغدو النص المتناص خلاصة لعدد من النصوص التی تمحی الحدود بینها و أعدّت صیاغتها بشکل جدید بحیث لم یبق من النصوص السابقة سوی مادتها». (عزام ،٢٠٠١: ٢٩)

التناص عند العرب

کما أشرنا سالفاً أنَّ مصطلح التناص لیس لدیه خلفیة عریقة فی الأدب العربی الحدیث، بل ورد هذا الاصطلاح جدیداً فی الأدب العربی ولکن قد أولی نقاد العرب القدامی بمفهوم التناص أو التدخل النصی عنایتهم و عالجوه ؛ لا بتسمیتها المعاصرة و إنّما بتسمیات أخری کالموازنة و المناضلة و الوساطة و التضمین و الاقتباس و الاستشهاد و السرقات و المعارضات و النقائض. (عزام،٢٠٠١: ١٢) منذ ورود مصطلح التناص فی الأدب العربی ، تشتّت الآراء حول تسمیته و تعریبه فلم یتفق علیه العرب المعاصرون بعدُ، علی تعریب مصطلح التناص INTERTEXTALIE. فبعضهم یعرّبه " التناص " وآخرون " التناصیة " وفریق ثالث بـ" النصوصیة " ورابع بـ " تداخل النصوص " ؛ مع

ذلک فإنّ المصطلح الأول " التناص " هو الذی شاع و انتشر(عزام ، ٢٠٠١: ٤٠)؛ علی أنّ نقاد الأدب العربی قد اختلفوا فی مفهوم مصطلح التناص. هنا نعدّد عدة تعاریف لها؛ فالتناص «تشکیل نصّ جدید من نصوص سابقة أو معاصرة و هو خلاصة لعدد منها قد أعدّت صیاغتها بشکل جدید و لم یبق من النصوص السابقة سوی مادتها(عزام ، ٢٠٠١: ٢٩)؛ فیعرف محمد الفتاح التناص بأنه: "تعالق (الدخول فی علاقة) نصوص مع نص حدث بکیفیات مختلفة». (فتاح، ١٩٩٥: ١٢١) أمّا الدکتور محمد بنیس فیقترح صیاغة جدیدة لمصطلح التناص حیث یسمّیه (النص الغائب) و یری أنّ النص الشعری هو بنیة لغویة متمیزة لیست منفصلة عن العلاقات الخارجیة بالنصوص الأخری؛ و هذه النصوص الأخری ما یسمیها بنص الغائب و یری أنّ النص کشبکة تلتقی فیها عدة نصوص و هی نصوص لا تقف عند حدّ النص الشعری بالضرورة لأنها حصیلة نصوص یصعب تحدیدها، إذ یختلط فیها الحدیث بالقدیم، والعام بالأدب، والیوم بالخاص، والذات بالموضوع.(بینس، ١٩٧٩: ٢٥١) و یقترب رأی ابراهیم الرمانی من رأی محمد بینس السابق لتعریف مصطلح التناص حیث عرفه بأنّه« مجموعة النصوص المستمرة التی یحتویها النص الشعری فی بنیته و تعمل بشکل باطنی عضوی علی تحقق هذا النص وتشکل دلالته».(رمانی،١٩٨٨: مجلة عدد٤٨)

فالتناص أداة تعبیریة، و رؤیة إبداعیة، و فعالیة إجرائیة، وآلیة إنتاجیة، و خاصیة بنائیة قائمة فی أساسها علی تعایش النصوص و تعالقها ضمن فاعلیة فنیة و حساسیة شعریة قادرة علی التداخل مع الآخر و التفاعل معه وفقاً لجدلیة الإزاحة و الإحلال التی تتوخی استدعاء تجارب و أفکار متباینة و امتصاصها و إعادة صیاغتها ضمن رؤیة فنیة تتجاوب مع تجارب المبدع و انفعالاته، و تکشف عن طاقات تأویلیة متجددة تحقق الفعل التواصلی بین الذاتی و الموضوعی الذی یقضی علی أحادیة المعنی و نهائیة الدلالة. (صرصور، ٢٠٠٩: مجلة عدد٢)

قسم نقاد الأدب العربی التناص إلی قسمین:

التناص الداخلی : فالتناص الداخلی هو حوار یتجلی فی توالد النص و تناقش فیه : الکلمات المفاتیح او المحاور والجمل المنطلقات والأهداف والحوارات المباشرة و غیر المباشرة فهو إعادة انتاج سابق فی حدود من الحریة.

أما التناص الخارجی: فهو حوار بین نص و نصوص أخری متعددة المصادر و الوظائف و المستویات. (عزام ٢٠٠١: ٣١) و فی الواقع إنّ استشفاف التناص الخارجی فی النصّ عملیة لیست بالسهلة وخاصة إذا کان النص مبنیا بصفة حاذقة.

و بما أنّ حسان بن ثابت استخدم فی شعره الآیات القرآنیة و بنی نصه الشعری علیها ، قد استخرجنا فی هذا البحث المفردات و المضامین القرآنیة الذی یسمّی عند النقاد العرب بالتناص الخارجی، « ویعرف التناص مع المصادر الدینیة عادة بالاقتباس، فالاقتباس یدخل دائرة التناص و یشکل رافداً مهماً و أساسیاً من روافده».(البادی، ٢٠٠٨: ٣٩)

حسان بن ثابت الانصاری

هو حسان بن ثابت بن المنذر بن حرّام بن عمرو بن زید مناة بن عدی بن عمرو بن مالک بن النجار من بنی النجار من قبیلة الخزرج ، ینتهی نسبه الی قحطان (الإصفهانی، ج٤،١٤١؛ البستانی، ١٩٧٩: ٢٧٢) و کان أبوه ثابت بن المنذر من سادة قومه و أشرافهم و کانت أمه (الفریعة) خزرجیة مثل أبیه (ضیف ، ٢٠٠٩ : ٧٧). کان حسان فی الجاهلیة یمدح الملوک و المناذرة و الغساسنة و یرحل إلیهم فینال منهم جزیل العطایا ، و أکثر من کان یمدحهم و یکثر انتجاعهم آل جفنة من ملوک غسان. (الاسکندری : ١٩١٩ : ١٣٠) و هو جاهلی إسلامی متقدم الإسلام (الدینوری،١٩٤٥ : ٢٩٦) و عندما هاجر رسول الله صلی الله علیه و سلم إلی یثرب ، دخل حسان فی الإسلام وأصبح

شاعر النّبی و إذا أخذ شعراء قریش فی هجاء الرسول و صحبه مـن المسـلمین انبری لهم بلاذع هجائه. (ضیف، ٢٠٠٩ : ٧٧) و أسنَّ حسان کثیراً ثم عمی فی أواخر أیامه و توفّی سنة ٥٤ هـ ، ٦٧٤م .(فروخ، ١٩٨١: ٣٢٥- ٣٢٦)

مکانة حسان بن ثابت

کان لحیاة حسان بن ثابت فی الجاهلیة والإسلام أکبر الأثر فی شعره ، و لا نرید أن نزید فی المنقول عنه و لکن نکتفی بـذکر بعـض الآراء لأئمـة اللغـة و الشعراء التی قیلت حول حسان فی الکتب التاریخیة ؛ یقول أبو عبیـدة : فَضَـلَ حسان الشعراء بثلاث ، کان شاعر الأنصار فی الجاهلیة ، و شاعر الرسول صلی علیه و سلم فی النّبوة و شاعر الیمن کلّها فی الإسلام (البرقوقی ، ٢٠٠٤ : ١٧)

و قال الاصمعی : حسان فحل من فحول الجاهلیة ، فلماء جاء الإسلام سقط شعره. و قال الحطیة: أبلغوا الأنصار أنَّ شاعرهم أشعر العرب حیث یقول:

یَغشَونَ حتّی ما تَهرُّ کلابُهم لا تسألونَ عَن السّوادِ المُقبلِ

و قال ابو عمرو بن العلاء : حسان أشعر أهـل الحضـر ، و قـال ابـو الفـرج الإصفهانی : حسان فحل من فحول الشعراء و قد سـمع النابغـة الـذبیانی شـعر حسان فقال له : إنّک لشاعرٌ. (البستانی : ١٩٧٩ : ٢٨٠ – ٢٨١)

و مع کل هذه الآراء التی قیلت من أئمّة اللغة و الشعراء نجـد أقـوی الآراء کانت من خیر البشر رسولنا محمد صلی الله علیه و سلم ، فقد اختـاره لیکـون شاعره ، و لیکون لسان الإسلام والمسلمین وهذه شهادة فی حد ذاتها لا تعادلها شهادة ، بل إنّ رسول الله (ص) کان یدعو له بالتأیید مـن السـماء فقـال علیـه الصلاة و السلام: اللهمّ أیّده بروح القدس ، فأیّ حکم علی حسـان بعـد ذلـک. (ضیف ، ٢٠٠٩ : ٧)

و قال النّبی(ص) أیضاً : امرو القیس صاحب لواء الشعراء فی النار و حسان بن ثابت یقود جموعهم إلی الجنة.

مظاهر التناص القرآنی فی شعر حسان بن ثابت الأنصاری

إذا تورقنا دیوان حسان بن ثابت الأنصاری نری فی هذا الدیوان نوعین من الشعر : الجاهلی و الإسلامی و إن قال بعض النقاد کالأصمعی: إنَّه ضَعُف خیال حسان فی الإسلام و شعره الجاهلی أقوی خیالاً. (البستانی ، ١٩٧٩ : ٢٧٩)، لکن إذا دققنا فی شعره الإسلامی نری قد ازدادت ملکته اللغویة و أظهرت فی أشعاره مفردات ذات معانٍ و مضامین جدیدة و حسان کان یرید بهذه الوسیلة أن یؤثّر تأثیرا بالغاً فی مخاطبه. لهذا لجأ إلی القرآن لکی یستفید من مفرداته و مضامینه لإنشاد شعره الذی کان ینصر به النبی (ص) علی الکفار لهذا ولد شعر جدید لحسان ذو صبغة دینیة و هذه العملیة اسمها فی النقد الحدیث (التناص) و نحن أردنا أن نناقش هذا البحث من جانبین : جانب اللفظ و جانب المضمون.

المفردات و الألفاظ القرآنیة

یعتبر استعمال المفردات و الألفاظ القرآنیة أحد أشکال التناص القرآنی فی شعر حسان بن ثابت الأنصاری. فهنا نشیر إلی بعض هذه المفردات التی ألهمها الشاعر من القرآن .

قال حسان بن ثابت الأنصاری یمدح النّبی فی قصیدته الدالیة :

فَأمسَی سِرَاجاً مُستَنِیراً و هادِیاً یَلُوحُ کما لاَحَ الصَّقِیلُ المُهَنَّدُ

(دیوان حسّان ، ٢٠٠٤ : ٨٥)

فی هذا البیت یمدح الشاعر رسول الإسلام (ص) و یصفه بسراجٍ مستنیرٍ ، یکون دلیل القوم فی الظلمات و بهذا الوصف الرائع ینتقل ذهن القارئ إلی هذه الآیة الشریفة من سورة الأحزاب إذ قال تعالی [وَدَاعِیاً إِلَی اللَهِ بِإِذنِهِ وَسِرَاجاً منیراً] (الاحزاب ، ۴۶) و نری أنَّ حسان قد استخدم الآیة بنفس الألفاظ فی هذا البیت من شعره و أراد أن یبین عظمة رسول الله(ص) و کرامته و عندما ندقق فی هذا البیت نری عملیة التناص واضحة لأنَّ الشاعر استخدم نفس الآیة

و ألفاظها و الذی ما کان یستخدمه من قبل .

و أیضاً فی نفس هذه القصیدة :

وَأنذَرَنَا نَاراً وَبَشَّرَ جَنَّةً وَعلَّمَنَا الإسلامَ فَاللهَ نَحمَدُ

(دیوان حسّان ، ۲۰۰۴: ۸۵)

فنری هنا أیضاً أنّ الشاعر قد استخدم المفردات القرآنیة فی بیته هذا کـ" انذار، ناراً، بشر، جنة" و حینما تواجه هذا البیت سینتقل ذهنک إلی قول الله تبارک و تعالی [إنَّ الَّذِینَ یَکفُرُونَ بایَاتِ اللَه وَیَقتُلُونَ النَّبیینَ بغَیرِ حَقٍّ وَیَقتُلُونَ الَّذِینَ یَأمُرُونَ بالقِسطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرهُم بعَذَابٍ أَلِیم] (آل عمران: ۲۱) و أیضاً هذه الآیة [وَ بَشِّرِ الَّذِینَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ أَنَّ لَهُم جَنَّاتٍ تَجرِی مِن تَحتِهَا الأنهَارُ.] (البقرة: ۲۵) فقد استحوذت هذه المفردات القرآنیة علی ذهنه فأتی بها فی هذا البیت بصورة مباشرة دون أیّ تغییر.

و أیضا یقول:

لَکَ الخَلقُ وَالنَّعمَاءُ وَالامرُ کُلُّهُ فإیَّاکَ نَستَهدِی وَإیَّاکَ نَعبُدُ

(دیوان حسّان، ۲۰۰۴: ۸۶)

فی هذا البیت حسّان یخاطب رب العالمین مباشراً و یحمده علی أنّه أرسل لهم بشراً صالحاً لکی یهدیهم إلی طریق الصواب و من ثَمّ یستعمل الألفاظ و المفردات القرآنیة و نری استخدامه لهذه المفردات تعطی أشعاره حلاوةً و زینةً تمیزه عن سائر الشعراء الذین عاصروه و نری أیضاً أنّ الشاعر أتی بنصّ الغائب (القرآن) ثم یرتد منه إلی خطاب الحاضر(الشعر). و هذه نفس ظاهرة التناص الذی تدل علی هذه الآیة الکریمة [إیَّاکَ نَعبُدُ وَ إیَّاکَ نَستَعِینُ] (حمد: ۵).

و فی بیت آخر:

تَرکَنَاهُمُ لِلعَاوِیَاتِ تَنُوبُهُم وَ یَصلَونَ نَاراً بَعدُ حامِیَةَ القَعرِ

(دیوان حسّان ، ۲۰۰۴ : ۱۵۰)

یرسم الشاعر هنا لمخاطبه صورة من معرکة بدر التی انتصر المسلمون علی

الكفار و بقيت أجساد الكفار على الثرى مطروحة و يعبر عن مصيرهم باستخدام المفردات القرآنية التى ضمنها من الآية الشريفة قوله تعالى [نَارٌ حَامِيَةٌ] (القارعة : ١١)

وتتمثّل أيضاً ظاهرة التناص فى البيت التالى:

وَنَعلَمُ أنَّ المُلكَ لله وَحدَهُ وَأنَّ قَضَاءَ الله لابُدَّ وَاقِعُ

(ديوان حسّان ، ٢٠٠٤ : ١٩٢)

بعد انتصار المسلمين فى غزوة بدر نرى الشاعر ينشد عينيته و يريد أن يبين عظمة الله الذى أعانهم فى هذه الحرب و انتصروا على الكفار. لهذا لجأ إلى قول الله تعالى فى سورة آل عمران الشريفة [وَلِلّهِ مُلكُ السَّمَوَاتِ والأَرضِ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَىءٍ قَدِيرٌ] (آل عمران : ١٨٩)

و قال الشاعر فى قصيدته التى أنشدها فى يوم أحد فى هجو قريش خصوم النّبى صلى الله عليه و آله وسلم :

و قَتلاكُمُ فِى النَّارِ أفضَلُ رِزقِهِم حَمِيمٌ معاً فِى جَوفِهَا وَ ضَرِيعُ

(ديوان حسّان ، ٢٠٠٤ : ١٩٥)

إنَّ الشاعر يخاطب المشركين بخطاب قرآنى و إن كان هذا الخطاب عبر الشعر و يذكّرهم بهذه الآية الشريفة من سورة الغاشية قوله تعالى :[لَّيسَ لَهُم طَعَامٌ إلَّا مِن ضَرِيعٍ لَّا يُسمِنُ وَ لَا يُغنِى مِن جُوعٍ] (الغاشية : ٧و٦)

و نرى أنّ الشاعر أخذ نفس هذا الإنذار لعاقبة المشركين و أيضاً نفس المفردات(حميم و ضريع) بصورة مباشرة من القرآن الكريم .

و أيضاً قال :

وَ أعطَوا بأيدِيهِم صَغاراً وتَابَعُوا فَأولَى لَكُم أولَى حُدَاةَ الزَّوَامِلِ

(ديوان حسّان ، ٢٠٠٤ : ٢٣٠)

فى هذا البيت يستخفّ حسان المشركين و يحطّ من شأنهم و يهددهم بهذا الإنذار القرآنى فنراه يستخدم نفس المفردات القرآنية بنفس المعنى فيشير الشاعر إلى سورة القيامة قوله تعالى [أولَى لَكَ فَأولَى ثُمَّ أولَى لَكَ فَأولَى] (القيامة : ٣٤و٣٥).

المضامین و المفاهیم القرآنیة

أما الموضوع الثانی الذی نرید أن نناقشه هو المضمون القرآنی الـذی تبلـور فی شعر حسان بن ثابت الأنصاری و کان له نصیبٌ کبیرٌ فی أشعاره الإسلامیة .

فالشاعر یستدعی ألفاظ الآیات القرآنیة بمضمونها الفکـری و یوظفهـا فـی إطار بنائی مطابق للنص القرآنی من ناحیة المضمون و ذلک کما یلی:

یُنشِدُ حسان:

عزیزٌ علیهِ أن یَحِیدُوا عن الهُدَی حَرِیصٌ علی أن یَستَقِیموا و یَهتَدُوا

(دیوان حسّان ،٢٠٠٤ : ٩٣)

إن الشاعر عمد إلی إدخال ألفاظ " عزیز، الهـدی، حـریص " و هـو بهـذا البیت یعنی: إنَّ الرسول صلی الله علیه وآله و سلم قد یعانی من کفر المشـرکین فیستند بهذه الآیة الشریفة قوله تعالی [لَقَد جآءَکُم رَسُولٌ مِّـن أنفُسِـکُم عَزِیـزٌ عَلَیهِ مَا عَنِتُّم حَرِیصٌ عَلَیکُم بِالمُومِنِینَ رَءُوفٌ رَّحِیمٌ] (التوبة : ١٢٨) موقـف ایجابیٌ قوی یتمخض عنه الإجلال و التقدیر للرسول علیه الصـلوة والسـلام و شهادة الله تعالی بأنَّ النبی کان حریصاً علی هدایة الناس و إرشادهم و نلاحـظ لولا استطلاع الشاعر عن آیّ القرآن الکریم لما اسـتطاع أن یـأتی بهـذا البیـت الجمیل الذی مضمونه مأخوذ بصورة غیر مباشرة مـن الآیـة الکریمـة. و هنـا تصح نظریة التناص بأنَّ کل نص جدید یولد من نص قدیم .

أنشد حسان :

فَقالُوا عَلَی خَطِّ النَّبِیِّ فأصبَحُوا أَثَامَی بِنَعلَی بِغضَةٍ وَ قِرَافِ

(دیوان حسّان ، ٢٠٠٤ : ٢٠٧)

یشیر هذا البیت إلی أنَّ الکفار قد نسبوا کذبة علی الرسـول (ص) فنـری أنّ حسان أتی بهذا البیت بصورة طریفة، یرمـز إلـی الآیـة الشـریفة بصـورة غیـر مباشرة قلما تتبادر إلی ذهن القارئ ، هی قوله تعالی [وَلَو تَقَـوَّلَ عَلَینَـا بَعـضَ اَلأَقَاوِیلِ] (الحاقة :٤٤) فهذه الآیة تشیر إلی أنَّ الله تبارک تعالی یوجه خطابه إلی المشرکین بأنَّ النبی إذا نسب علینا بعض الأکاذیب نأخذ بناصـیته و نعذبـه

فکیف أنتم تقولون علی الله و رسوله قولاً باطلا فتتجلی فی هذا البیت فاعلیة التناص الشعری لبعض المعانی القرآنیة و الشاعر أراد أن یبیّن مصیر الذین ینسبون الکذب علی النبی (ص) و لهذا استند بهذه الآیة.

و فی قصیدته التی یصف بها الرسول(ص)یقول :

وَ أنَّ أخَا الأحقَافِ إذ یَعذُلُونَهُ یَقُومُ بدِین الله فِیهم فیَعدِلُ

(دیوان حسّان ، ۲۰۰۴ : ۲۳۲)

قد أشار الشاعر فی هذا البیت إلی أنَّ النبی محمد (ص) رسولٌ من الله عزَّ وجلَّ قد بعث لهدایة الناس و یحکم بینهم بالعدل و یقوم شعائر الله، یصف حسان النبی (ص) فیقول: و رغم ملامة الکفار فإنّه لم یکف عن إبلاغ رسالته، و استخدام الشاعر لفظة أخا الأحقاف التی تنقل افکارنا واذهاننا الی الآیة المبارکة [وَاذکُر أخَا عَادٍ إذ أنذَرَ قَومَهُ بالأحقافِ وَقَد خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَینِ یَدَیهِ وَ مِن خَلفِهِ ألّا تَعبُدُوا إلَّا اللهَ إنِّی أخَافُ عَلَیکُم عَذَابَ یَومٍ عَظِیمٍ](الاحقاف : ۲۱) ویشیر هذا البیت إلی أنَّ الرسول حریص علی هدایة الناس کما کان نبی هود حریص علی هدایة قومه فاستشهد فی بیته بهذا المضمون القرآنی .

و فی بیت آخر یقول حسان:

وَکَم رَدَدنَا بِبَدرٍ دُونَ مَاطَلَبُوا أهلَ النِّفَاقِ وَفِینَا أُنزِلَ الظَّفَرُ

(دیوان حسّان ، ۲۰۰۴: ۱۵۸)

یبین لنا هذا البیت أنّ المسلمین قد انتصروا فی معرکة بدر علی الکفار انتصاراً باهراً لکن کان الکفار أکثر عدّة وعدداً و هنا یتبادر إلی الذهن هذا السوال و هو: من أعان المسلمین فی هذه الحرب حتی انتصروا علی المشرکین ؟ یبین حسان أن الله تعالی کان سبب انتصار المسلمین فی هذه الحرب و حینما یقول (فینا أنزل الظفر) یرمز بصورة غیره مباشرة إلی مضمون الآیة الکریمة قوله تعالی[وَلَقد نَصَرَکُم اللهُ بِبَدرٍ وَاَنتُم أذِلَّةٌ فَاتَقُوا اَللهَ لَعَلَّکُم تَشکُرُونَ] (ال عمران : ۱۲۳) و أتی بهذا المضمون بشکل غیر ملموس فهنا یبدو لنا أنّ المضمون الذی کان مکنونا فی ثنایا هذا البیت قد ولد من مضمون الآیة

الشريفة كما بينا سالفاً و هو إنَّ الله نصر المسلمين أمام المشركين فی هذه الحرب .

أنشد حسان قائلاً:

مُستَعصِمِينَ بِحَبلٍ غَيرِ مُنجَذِمِ مُستَحكَمٍ مِن حبَالِ الله مَمدُودِ

(ديوان حسّان ، ۲۰۰۴: ۸۶)

هنا أيضاً يصف حسان المسلمين بمعركة بدر و يقول إنّهم يد واحدة لن يتشتتوا أبداً وقد يوحی إلينا هذا البيت أنّ مضمونه مقتبسٌ من القرآن الكريم فيذكرنا بالآية الشريفة [وَاعتَصِمُوا بِحَبلِ الله جَمِيعاً وَلاتَفَرَّقُوا وَاذكُرُوا نِعمَتَ الله عَلَيكُم إذ كُنتُم أعداءٍ فَألَّفَ بينَ قُلوبِكُم فَأصبَحتُم بنعمَتِهِ إخوَانَاً وَكُنتُم عَلَى شَفَا حُفرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأنقَذَكُم مِّنهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنَ اللهُ لَكُم ءاياتِهِ لَعَلَّكُم تَهتَدُونَ](آل عمران : ۱۰۳) فقد استعان الشاعر هنا بمضمون هذة الآية الكريمة لكی يبين وحدة المسلمين و إخلاصهم فی أوان بزوغ شمس الإسلام وعدم تشتّتهم مهما كان الأمر .

وينشد فی بيتاً آخر:

بِهُبُوبِ مُعصِفَةٍ تَفَرَّقَ جَمعُهُم وَجُنُودِ رَبِّکَ سَيِّدِ الأَربَابِ

(ديوان حسّان ،۲۰۰۴: ۴۴)

يشير لنا هذا البيت بأنّ فی حرب الخندق(الاحزاب) قد هبت علی الكفار الرياح وشتت شملهم وهربوا من ساحة القتال وقد أتی حسان بن ثابت بهذا البيت بشكل رائع ونص " جنود ربک" قد يوحی إلينا أنّ حسان قد اقتبس هذا المضمون من الآية الشريفة قوله تعالی [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذكُرُوا نِعمَةَ الله عَلَيكُم إذ جَآءَتكُم جُنُودٌ فَأرسَلنَا عَلَيهِم رِيحاً وَجُنُوداً لَّم تَرَوهَا](الأحزاب : ۹)ونری أنّ الشاعر استطاع بملكته الشعرية يضمن هذا المضمون فی بيته لكی يرسم هذه الفكرة من جديد فی ذهن مخاطبه ويوثر فيه تأثيراً بالغاً لكی لا ينسی رحمة الله.

قال حسان بن ثابت:

رَؤُوفٍ عَلَى الأَدنَى غَلِيظٍ عَلَى العِدَا أَخِي ثِقَةٍ فِي النَّائِبَاتِ نَجِيبِ

(ديوان حسّان ، ۲۰۰۴: ۶۱)

يصف حسان بن ثابت فی هذا البيت الرجل الصالح الذی فی معاملته يلاطف الأقربين ويشدد فی معاملته مع خصومه فقول حسان «رؤوف علی الأدنی غليظ علی العدا» يقرب الذهن إلی هذه الآية الشريفة [مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَينَهُم تَرَاهُم رُكَّعاً سُجَّداً يَبتَغُونَ فَضلاً مِّنَ اللهِ وَرِضوَاناً سِيمَاهُم فِي وُجُوهِهِم مِّن أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُم فِي التَّورَاتِ وَمَثَلُهُم فِي الإِنجِيلِ كَزَرعٍ أَخرَجَ شَطأَهُ فَآزَرَهُ فَاستَغلَظَ فَاستَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهُمُ الكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنهُم مَّغفِرَةً وَأَجراً عَظِيماً] (الفتح: ۲۹) فنری أنّ حسان قد رمز فی قوله إلی هذه الآية فاقتبس المضمون منها فاستخدمه فی بيته بصورة غير مباشرة بل بعد تحر وتفحص يتبين هذا الأمر و أراد حسان أن يوكد علی أنّ أصحاب النبی تتصف بهذه المحاسن. لذا ضمنَّ بيته بمضمون هذه الآية الشريفة لكی يعزز فكرته .

قال أيضاً:

مَاذَا تَقُولُونَ إِن قَالَ النَّبِيُّ لَكُم حِينَ المَلَائِكَةُ الأَبرَارُ فی الأُفقِ

(ديوان حسّان ،۲۰۰۴: ۲۱۴)

تتجلی فی هذا البيت بعض المضامين القرآنية قد صاغها الشاعر صياغة جديدة ومن الصعب أن تتبادر هذه المضامين القرآنية إلی ذهن القارئ مثلاً فی قوله «حين الملائكة الابرار فی الأفق» يقصد من هذه الجملة يوم القيامة فيشير هذا البيت إلی هذه الآية [المَلَكُ عَلَى أَرجَآئِهَا وَيَحمِلُ عَرشَ رَبِّكَ فَوقَهُم يَومَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ] (الحاقة: ۱۷) وفی هذا البيت يرمز حسان إلی يوم الحشر بشكل رائع فيستمد من المضمون القرآنی لكی يعبّر عن فكرته.

وينشد حسان قائلاً:

وَهَل يَستَوِی ضُلَّالُ قَومٍ تَسَفَّهُوا عَمًی وَهُدَاةٌ يَهتَدُونَ بِمُهتَدِ

(ديوان حسّان ،۲۰۰۴: ۹۰)

فی هذا البیت یخاطب حسان المشرکین الذین بعد أن نزلت علیهم رحمة الله (الهدایة) رفضوها وبقوا فی ضلالتهم و جهلهم. لهذا أراد أن ینبههم فأتی بهذا البیت الذی مضمومنه مقتبسٌ من هذه الآیة الشریفة قوله تعالی [هَل یَستَوِی الأعمَی وَالبَصِیرُ أَم هَل تَستَوِی الظُّلُمَاتُ والنُّورُ] (الرعد، ۱۶) وهو أراد أن یحث المشرکین علی طاعة الله و قبول الاسلام و أیضاً تنذیرهم لهذا ضمن بیته بهذه الآیة الشریفة.

وقال أیضاً:

یا أَیُّهَا النَّاسُ أبدُو ذَاتَ أنفُسِکُم لاَ یَستَوِی الصِّدقُ عِندَ الله وَالکَذِبُ

(دیوان حسّان ،۲۰۰۴: ۵۰)

قد خاطب حسان بن ثابت فی هذا البیت الناسَ أن یُعلنوا ما فی انفسهم وأن لا یکتموه وحینما استعمل عبارة« أبدوا ذات أنفسکم لا یستوی الصّدق عند الله والکذب » قد یتبادر إلی ذهننا أنّ قصده من هذه الجملة هو قول ربّ العالمین [مَّا عَلَی الرَّسُولِ إِلَّا البَلَاغُ وَاللهُ یَعلَمُ مَا تُبدُونَ وَمَا تَکتُمُونَ] (المائدة: ۹۹) فقد أشار ببیته هذا خاصة(أبدوا ذات انفسکم) فیه إشارة خفیة إلی مضمون هذه الآیة المبارکة.

النتیجة

أما النتائج التی توصلت إلیها هذه الدراسة هی:

- لم تکن ظاهرة التناص غیر مألوفة عند نقاد العرب المتقدمین و کان یعرفونها بأسماءها المختلفة مثل: الاقتباس و السرقات و المعارضات و إلخ.
- کان حسان فی بدایات إسلامه و قد دخل فی مرحلة جدیدة من حیاته الأدبیه، فلهذا غلبت الفکرة الجدیدة علی وجوده و لسانه و مزج شعره بآی القرآن الکریم و استمدّ أدبه من هذا المنهل العذب و ابتعد عن شعره الجاهلی.
- قد استخدم حسان التناص الخارجی فی شعره، لأنّه امتص اللفظ والمضمون من القرآن الکریم.

- يعرف التناص مع المصادر الدينية عادة بالاقتباس، فالاقتباس يدخل دائرة التناص و يشكل رافداً مهماً و أساسياً من روافده.
- أصبحت ظاهرة التناص واضحة المعالم فی شعر حسان لأنّه قد مزج شعره بالقرآن الكريم من ناحية اللفظ و المضمون وأنتج شعراً جديداً ذا معانٍ جديدة مغايرةً لشعره الجاهلی.

المراجع

۱. القرآن الكريم
۲. الإسكندری، الشيخ أحمد والشيخ مصطفی عنانی،(۱۹۱۹)« الوسيط فی الأدب العربی وتاريخه»القاهرة: دار مارون.
۳. البادی، حصة عبدالله سعيد؛(۲۰۰۸م) التناص فی الشعر العربی الحديث، عمان، دار كنوز المعرفة العلمية للنشر والتوزيع.
۴. البستانی، بطرس(۱۹۷۹)،« ادباء العرب فی الجاهلية وصدر الاسلام»، بيروت، دار الجيل.
۵. البرقوقی،عبد الرحمن(۲۰۰۴)،«شرح ديوان حسان بن ثابت الانصاری»،بيروت، دار الكتاب العربی.
٦. البقاعی، محمد خير(۱۹۹۸)،«دراسات فی النص والتناصية»، حمص، دار المعارف.
۷. بنيس، محمد(۱۹۷۹)،« ظاهرة الشعر المعاصر فی المغرب–مقاربة بنيوية تكوينية»، بيروت دار العودة.
۸. الحمدانی، حميد(۲۰۰۱)،« التناص وانتاجية المعانی»(علامات فی النقدوالادب)القاهرة: دار النهضة.
۹. الدينوری، ابن قتيبة(۱۹۳۲)،«الشعر والشعراء» القاهرة: دار الحديث.
۱۰. ضيف، شوقی(۲۰۰۴)،«تاريخ الأدب العربی» (العصر الجاهلی)،القاهرة: دار المعارف.
۱۱. فتُاح، محمد(۱۹۹۵)،« تحليل الخطاب الشعری»(استرأتيجية التناص)،مغرب، دار البيضاء .
۱۲. فروخ، عمر(۱۹۸۱)،« تاريخ الأدب العربی»، بيروت: دار الكتب العربية.
۱۳. عزام؛ محمد(۲۰۰۱)،«النص الغائب»، دمشق: اتحاد الكتاب العربی.
۱۴. واصل، عصام حفظ الله حسين(۲۰۱۱م) التناص التراثی فی شعر العربی المعاصر، جزاير، دار غيدا للنشر و التوزيع.

مجلات

۱. حسن صرصور، عبدالجلیل(۲۰۰۹)«التناص فی شعر الفلسطینی المعاصر»مجلة جامعة الازهر بغزة، سلسلة العلوم الانسانیة، المجلد ۱۱،العدد ۲، صص ۲۴۱-۳۰۲.
۲. رمانی، ابراهیم(۱۹۸۸)«النص الغایب فی الشعرالعربی الحدیث»، مجلة الوحدة(۴۸).

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی